

في الشعر والشعراء

لناسبة وفاة المرحومين: « حافظ » و « شوقي »

١ - هل أهرت موت الساعرين فراعاً ؟

٢ - ما مرى مستقبل الشعر والشعراء ؟

في العدد الماضي من هذه المجلة ، وضحنا هذا الاستثناء الذي قمنا به منذ شهرين تقريباً ، والغرض منه التعرف إلى آراء كبار الكتاب والشعراء ، في هذا الموضوع الذي كان في الأصل يتضمن ثلاثة أسئلة ؛ فاقصر جميع الذين حادثنهم على الجواب عن السؤالين الأولين ، أما السؤال الثالث وهو : من من شعرائنا الحاليين أجدر بزمامة الشعر ؟ فلم نعتز له على جواب ؛ وهذا ما توجهنا به إلى القراء لاستفتائهم فيه (أنظر ص ١١٧٩) . ونحب أن نذكرهم بأننا نشرنا في الجزء الماضي آراء حضرات الأساتذة: إبراهيم عبد القادر المازني ، وأنطون الجميل ، وعلى الجارم ، ومحمد حسين هيكل ، ومحمد المرأوي .

وفي هذا الجزء نشرنا آراء حضرات الأساتذة : طه حسين ، وخلييل مطران ، وأحمد الإسكندري .

رأي الأستاذ الإسكندري

الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندري ، من دهاقين الأدب العربي ، وفي الذروة من أعلامه الممدودين ، وهو نسيج وحده ، لأن له في دراساته أسلوباً ومنهجاً فريداً في نوعها ، وهو يجمع ، إلى هذا كله ، دقة البحث ، وحسن الترتيب ، وعميق الاستقراء ، وسلامة الذوق ، وصحة الاستنتاج . ثم هو ، به ذلك أيضاً ، من أئمة اللغة الذين يؤخذ برأيهم ، ويعتجج بأقوالهم ، ويوثق ببحوثهم ، ويكاد يكون أكثر الأساتذة في مصر طلاباً ؛ بل لملك تدهش ، حين تعلم ، أن أكثر الأساتذة المدرسين — الذين يراملون بدار العلوم — من تلاميذه .

لهذا حرصنا على تعرف رأيه الذي تقدمه إليك ملخصاً في ما يلي :

هل أهرت موت الشاعرين فراغاً؟

أما أن موت الشاعرين أحدث فراغاً أو لم يحدث ، فسؤال يكاد يتفق أصحاب الرأي المنزه عن الهوى ، في أنه أحدث فراغاً ليس بالهين ولا باليسير . وأما مدى ذلك الفراغ فقد يكون من العسير التنبؤ به الآن ، وقد لا نستشعره إلا بعد عشر سنوات كاملات .

على أنه يحسن بنا لفهم ذلك أن نتساءل أولاً عن مبلغ ما للشعر من منزلة في نفوس أهل هذا العصر ، وعما إذا كان يستطيع أن يحتل مكاناً بين ما يضطرم به هذا العصر من ماديات ومعنويات لها مكاتها ومنزلتها .

أما أنا فأقول لك إن الشعر في ذاته فن جميل ، وكل ما هو فن ، هو في ذاته كمال ، وفي مقدور كل إنسان أن يدعه دون أن يحس نقصاً أو فراغاً البتة .

وليس أدل على هذا من أن مصر الحديثة لم تكن في حاجة مطلقاً إلى الشعر ولا إلى الشعراء ، وآية ذلك أن « محمد علي باشا » مفتي مصر الحديثة ، لم يكن يرى حاجة إلى الشعر ولا إلى الشعراء ، فلم يستعن بالشعر في توطيد ملكه ، أو يستمد من الشعراء قوة في تدعيم حكمه ، وإنما كان كل همه موجهاً إلى خلق مصر كدولة مستقلة ، لها سيادتها وعظمتها ، فلم يجد بداً في القيام بنهضته القوية الوثابة من التسليح بصلاح العلم ، ومن التحسك بعروة الدين ، فأرسل البعثات ونظم الجيوش وأقام الجسور ، وتناول كل مرافق الحياة ، واستعان بكل مستخرجات العلوم الكيميائية والطبيعية ، ومايمت إلى الأدب بسبب قوى ، ولم تر في تضاعيف ذلك كله أثراً للشعر ولا للشعراء ، فهل قصرت باع « محمد علي » عن بلوغ ما كان يحلم به لمصر الحديثة من شأو ؟ أو هل شعرت الأمة آتئذ بأن نعمة ما ينقصها ؟ الحق أن شيئاً من ذلك لم يكن ، والحق أن الشعر لم يكن ذلك عصره ، وإنما كان عصره في البداوة لا في عصور التمدن والحضارة .

ثم إن الشعر لم يخلق للعلم مطلقاً ، وليس مما يرتجل لتحقيق القواعد وتضمين الأوضاع ؛ وهو في نفسه خروج على النفس ، وتمرد على العرف ، وهو لا يكون بليغاً إلا حيث يخرج عن حد المألوف ، ولذلك يقال : « أبلغ الشعر أكذبه » .

والخلاصة أن مثل الشعر مثل الزخرفة في البيت سواء بسواء ، فأنت تستطيع أن تأوي إلى بيتك سواء أكان مزخرفاً أم غير مزخرف ، أو هو كالحلية تستطيع المرأة التجرد عنها ، دون أن يقلل هذا من رائع جمالها أو فتنتها عند صهيح النظر وسليبي الدوق .

والشعر من الشعور أو قل إنه من الأحاسيس أو من العاطفة ، فلا يتقيد بالعقل ولا يتعلق بأسباب المنطق ، ولا هو مما يقبل الحقائق .

مستقبل الشعر والشعراء

أما المستقبل فلنا أن نأمل فيه الخير كل الخير ، وأستطيع أن أصارحك القول بأن لدينا الآن بعض طلاب « دار العلوم » ممن يقولون الشعر ، ومن أقرأ لبعضهم شعراً ، فأراه — بالنسبة لبا كورة سنهم — مما يبشر بمستقبل حسن ، بل لا أكون مبالغاً إذا قلت لك : إنى أراه أروع من شعر « شوقي » ، فى بداية عهده بالشعر ، أيام كان فى مثل تلك السن فى مدرسة الحقوق . وقد صاحبت « شوقي » وأوفدت معه إلى بعض المؤتمرات ، كسؤتمر المستشرقين المنعقد فى أئينا عام ١٩١١ ، ثم حاصرته وقرأت له جل ما أنشأ ، وعرفت له أخطاء كثيرة ، وأرى أن هذه الروايات وتلك القصص التى قام بها أخيراً ليست بذات خطر ، ولا بالنوع الجديد الذى كنا ننتظره ، ثم هى لا تتماشى مع النوع القصصى ولا الأوبريت اللذين تفهمهما ، وإنما كانت من نوع خليط ، فأنت ترى البيت الواحد من الشعر يقطع ثلاث مقاطع أو أربعاً فى بعض الأحيان ، فيبدأ أحد أشخاص الرواية بتقطع ، ويثنى آخر ، ويتبعه ثالث ، ثم يتلوه رابع ، وهكذا حتى يتم البيت . وقد يكون صدر البيت من « المخرج » بينما عجزه من « البحر الطويل » ، مما لا يتسق والموسيقى ، أو يتماشى والذوق السليم ، ولهذا كانت تنفر منه الأسماع .

على أنى لا أنكر أن « شوقي » تقدم بالشعر خطوات واسعة ، فقد حاول أن يتأثر المثنى وأبا فراس الحمدانى وأبا تمام وابن المعتز وأبا نواس وابن هانى وغيرهم من عيون الشعراء ، فوفق إلى حد بعيد ، وأجاد إجادة تقرب من السكال ؛ ثم خرج على الشعراء المعاصرين له أو الذين سبقوه بقليل ، فلم يشابههم فى النقد أو التقرىظ إلا غرارة ، وإلا ما كانت له ضرورة ملححة . ومع هذا فأنى أرى الظروف مواتية الآن لظهور الشعراء وبروز الشعر ، وارتفاعه إلى ما يقرب من سابق عهده فى سالف عصور الاسلام ؛ فقد بدأنا نرى معجبين من الأمة كثيرين يتأثرون الشعر ويتمصبون للشعراء .

بل أعتقد أن مؤهلات النبوغ الموجودة الآن ، تسمح بانبات شعراء مغاوير ، أكثر مما سمحت لشوقي وحافظ وصبرى والبارودى وأضرابهم ؛ فقد انتشر التعليم — ولا انتشار التعليم دخل فى ذلك ليس بالقليل — ، ولدينا جرائد ومجلات مختلفة تعنى بالشعر والشعراء ، ثم هناك كتب الأدب ودواوينه القديمة التى طبعت حديثاً ، والتى لم تكن مطبوعة من قبل شوقي وحافظ ؛ وهذه سيكون لها أثرها فى تخرج شعراء فى المستقبل .

ولست أنكر — إلى هذا — أن روح الأمة غير مشبعة بروح الشعر العربى الفصيح رغم هذه الظاهرة : ظاهرة التشجيع التى تراها الآن ، وذلك بسبب تقشى الروح العربى فى نفوس

أبنائها، وتقهقر مدينتنا الروحية. والشعر كالسائح لا يحل في غير البلد الذي ترتضيه روحه، فليعلم طلابه ذلك، وليتذكروا عهود العرب وأسواقهم ودواوينهم ولغتهم إن كانوا يريدون شعر العرب. ورأيت في النهاية هو أن هذه النهضة التي تبشرنا بمستقبل حسن، ستكون باكورة موقعة لعهد زاهر في القريب إن شاء الله؛ فلننتظر عشر سنوات كاملات.

رأى الدكتور طه حسين

الدكتور طه حسين زعيم المجددين دون منازع، وحامل لواء التفكير الحر غير مدافع، وقد يكون أكثر ديمقراطية وإنتاجاً وأثراً في بلاد العربية دون استثناء أو تخصيص، بل قد يكون أبعد كتابنا وأدبائنا ذبوع صيت ونباهة ذكر في الشرق والغرب.

أما أسلوبه، وأما بحوثه، وأما بيانه، وأما مادته، وأما جولته، وأما آرائه، وأما ما أعرف، وما لا أعرف من سحره الخلال، فأمر سارت بذكرها الركبان، وطارت بها الشهباء إلى أجواز الفضاء.

إزاء ذلك كله، لم يكن من بد من التحدث إليه في موضوع اليوم، وتعرف رأيه الذي تقدمه إليك في شيء من الإيجاز يسير، وفي شيء آخر من البسط قليل، بل في شيء لست أعرف إن كان حيرة أم تردداً، وإنما أعرف أن ما أقدمه إليك الآن، هو خلاصة ما وعته الذاكرة الضعيفة، فلينسب إليها التقصير، إن كان ثمة تقصير.

هل أمرت صوت الشاعر به فراغاً؟

الآن، في حيث لا اتهام بتعصب ولا غرض، وفي حيث لا وجود لمنافسة ولا منازعة، والآن بعد أن عرف الناس ما تسألني عنه حق المعرفة، وبعد أن علم القاصي والداني، ما تريدني على التحدث إلى قرائك عنه، أقول إن الانصاف يقضي على أن أقرر لك ولقراء مجلتك أيضاً، أن كلا من الشاعرين أجاد في ناحية، وأن كلا منهما أحسن في بعض قصائده، وأنهما معاً، ومع من سبهما بهمد قصير، ومع بعض الشعراء الموجودين الآن، سواء أكانوا ممن في مصر أم في غير مصر من بلاد العربية طامة، قد استطاعوا جميعاً أن يردوا إلى الشعر العربي بعض شبابه في الدولة العباسية إلى حد محدود، كما استطاع الفقيد أن يحتفظ لمصر بزمامة الشعر.

أريد أن أعترف بهذا في غير ما موارد ولا خفاء، وأريد أن أعترف أيضاً، وفي غير ما موجدة ولا ضغينة أيضاً، أنهما حاولا جهد طاقتهما أن يتكبرا، وأن يقلدا، وأن يجيدا في الابتكار، وأن يجيدا في التقليد، فأصابا بعض النجاح، وأخفقا بعض الاخفاق.

حاول « شوقي » أن يتكرر في با كورة شبابه ، أو قل حاول أن يجدد في مستهل حياته ، فكان يوفق بعض التوفيق حين يعمد إلى الصراحة ، ويفشل كل الفشل حين يلجأ إلى التستر والمداورة .

وحاول « حافظ » أن يحاكي شعر القدماء في بداءة عمره ، أو قل حاول التقليد في فجر شبابه ، فكان يوفق أغلب التوفيق حين يعمد إلى أسلوب القدماء وأخيلتهم ، ويفشل الفشل كله حين يلجأ إلى نفسه يستلهمها الخيال والفكرة ، وإلى حافظته يستعيرها الألفاظ القديمة والحديثة .

حاول كل منهما أن يسلك الطريق التي رسمها لنفسه في ضجوة العمر ، لكنهما أخفقا في النهاية ، أو قل إنهما استحالوا إلى الضد ، فسلك « شوقي » في نهايته ، طريق « حافظ » في بدايته ، واختلط « حافظ » في آخرته ، خطة « شوقي » في با كورته . وقد يكون إخفاق « حافظ » تجديداً أو بعض تجديد ، فيصح أن نسميه نجاحاً أو شبه نجاح . وقد يكون إخفاق « شوقي » تقليداً أو بعض تقليد ، فيجوز أن نسميه — بالرغم من أنه تقليد — نجاحاً أو شبه نجاح . ومع هذا، هل أحدث موتها فراغاً؟ ما أعلن ذلك إن صح مجازاً بالذي يصح في عالم الحقائق، ولو افترضنا صحته فلن نعدم من يسده ؛ ما دمننا نرى الشعر في حاله الراحنة بعيداً عن أن يمثل النفس المصرية ، أو يحقق أطباع الروح العربية ، أو يهتف بما للشرق من آمال وأحلام ، أو يتمثل للشباب المثل العليا التي يجب أن تصور لأبناء الشعب وشبابه تصويراً دقيقاً يدفعهم إلى الاحساس بها والتمثل لها .

وقد يكون من الخير، لو تنتقل إلى الثاني لتفصيل ما أجملت في هذه النقطة .

مستقبل الشعر والشعراء

قد يكون الشعر في حياتنا الحاضرة مما لا ضرورة له ، بل أزعج أنه لم تعد له الضرورة التي كانت له في العصور السابقة ، ذلك أنه كان في تلك العصور الخالية من طبيعة الحياة ، باعتباره اللسان المعبر عما في الحياة من مختلف الألوان والمشاعر . ولهذا كان القدماء يقولون : « الشعر ديوان العرب » ، والحق أن الشعر في ذلك العصر البائد ، كان يصلح لأن يكون ديواناً لحياتهم الساذجة إلى حد بعيد ، لأنه كان يتناول جل أنواع حياتهم وأغراضهم ، وهي حياة محدودة ، وأغراض متواضعة .

ومع هذا ، ومع ما كان للشعر العربي من منزلة ومكانة ، فإنه لا يكفى وحده مطلقاً لتعرف آثار العرب ؛ وبمكس هذا الشعر اليوناني ، فأنت تستطيع أن تلتبس ما تبحث عنه من آثار العقل اليوناني ، والحياة اليونانية الفلسفية والروحية والفنية ، في الشعر اليوناني نفسه ، في « الالبازة » و « الأودسا » مثلاً .

لقد كان « هوميروس » يفهم الشعر اليوناني حق الفهم ، ولذلك كان يصور المعاني البديعة في اللفظ المختار الذي لا يند عنه السمع ، ومع هذا فلم يكن شعره ليخلد هذا الخلود لو لم يتناول أدق المواضع الانسانية ، وبصور دفين الترعات النفسانية أدق تصوير .

أما الآن ، وقد تغير فهمنا للعبارة عن فهم العرب القدماء للحياة ، واتسعت أطباعنا ، وتعددت مطالبنا ، واختلفت أذواقنا ، وبلغت الانسانية في حاضرها هذا الشأ ، وقطع العقل البشري مرحلة كبيرة في سبيل التطور والرقى ؛ فقد أصبحنا في غنى عن الشعر ، وأصبح لا يوفينا حاجتنا ، وأصبحنا حين نود التماس هذه الحياة نزع إلى النثر ، وإلى كتاب النثر الجيدين .

وهاهي ذى « حادثة البدارى » ، هل تراني ألتبس وصفها وتحليلها من الشاعر أم من الكاتب ؟ لست أشك في أنا معاً ، أنا وأنت ، نلتسها عند كتابنا الجيدين « كهيكل » أو أضراب « هيكل » ممن ضربوا في النثر بسهم وافر .

وهذا دليل على أن النثر أخذ يحل محل الشعر ؛ لأن النثر صنو للعقل ، يتقدم بتقديمه ، وينحط بانحطاطه ؛ بعكس الشعر فإنه وحى العاطفة والخالط .

وتعال معي إلى الدولة العباسية ، فهاهو ذا « الجاحظ » قد طرق كل فنون الشعر ، فتحدى المدح والهجاء والسخرية وما شابه ذلك مما اختص به الشعراء ، بل تحدى أهم مميزات الشعراء في النزول ؛ وهذا نفسه دليل على أن النثر الذي يستطيع التغلب على الشعر ، لأن العقل كلما تغلب على الحياة فك من قيود الشعر .

ولقد قالوا قديماً « إن الشعر هو الكلام الموزون المقفى » ، وأنا أقول إن كل إنسان يستطيع أن يقول هذا الكلام الموزون المقفى ؛ ولكن ليس معنى هذا أنه يستطيع الآن أن يحدث في نفس الأثر الذي يحدثه الكاتب .

ثم مسألة أخرى أحب أن أعرض لها بشيء من التفكير يسير ؛ تلك هي وظيفة الشعر ؛ فأنا أزعم لك أنها تغيرت عن ذي قبل ، فأصبح من أنواع الترف لامن أنواع الضرورات كما كان عند القدماء ، وأنا وأنت نعلم أن مثل هذا النوع من الترف يعمل في الحياة أقل مما تعمل الضرورات .

ثم لاتفن أن للشعر صلة وثيقة بالموسيقى ، وأن له ذوقاً خاصاً يجب أن يلائمها ويتطور معها ، فهل ترى في شعرنا الحالي ما يلائم ذوقنا الموسيقى ؟ أكاد أشك في ذلك أكثر الشك ، بل أزعم أتى أشك في ذلك كل الشك . وها هي ذى الموسيقى تطورت ، بينما ترى الشعر جامداً أشد الجود ، اللهم إلا من بعض محاولات ضئيلة جداً ، والتطور ظاهرة القوة والحياة ، واية ذلك أن

الشعر الفرنسي تطور تطورات مختلفة من الناحية الموسيقية حينما أحس حاجته إلى التطور، فظل فنياً قوياً، وأصبح لدى الفرنسيين مذاهب مختلفة في تصور ألفاظ الشعر وأصواته، تقارب تصورنا لجور الشعر العربي وفواقيه، مما تواضع عليه العروضيون. وقد أراد «شوقي» أن يجدد في الوزن متمشياً مع الذوق الموسيقي فقال قصيدته التي مطلعها:

مال واحتجب وادعى الغضب
ليت هاجري يذكر السبب

وزعم أنه وزن فارسي استحدثه، ولكن علماء العروض لم يتركوا له هذه الدعوى دون أن يرجعوا إلى وزن عربي قديم.

والشعر لكي يكون صادقاً بليغاً يجب أن يتوفر فيه شرطان أو حاجتان كما يقول القدماء، وهما: المعنى واللفظ، وأنا أفهم المعنى على أنه الحال النفسية التي يجب أن يتحدثها الشاعر في نفس من يسمعه أو يقرؤه. أما اللفظ فليس هو الكلمات، وإنما المفروض فيه الصوت الذي يمس الأذن ويحدث فيها أثراً معيناً.

فن ناحية المعنى نلتبس المثل العليا، ومن ناحية اللفظ نلتبس الموسيقى، أو ما يرضى ذوقنا الموسيقي. وليس في شعرائنا من وفق إلى أن يحس هذه المثل أو تمثلها كما يفبغى، أو أرضى ذوقنا الموسيقي.

وفي اعتقادي أن ذلك راجع إلى أن ثقافتهم ثقافة ناقصة، فهم لم يقرأوا في الأدب أو الشعر أو الفلسفة الحديثة كثيراً، ولم يتروكوا بالأراء العلمية المتبكرة، ولا بالمذاهب الاجتماعية المستحدثة، وإنما ثقافتهم ثقافة خاصة محدودة، لم يتعدوا نطاقها. فهم جميعاً، والمسرفون في التجديد أيضاً، أو الذين يزعمون أنهم مجددون، لا يزالون ينظرون إلى الشعر بنظر القدماء إليه، فيعتمدون على الطبيعة ويحافظون على الوزن والقافية لا يبتغون عن ذلك حولا.

يقول أرسطو «الشعر محاكاة» فيجب على من يحاكي شيئاً أن يعرفه، فهل لدينا من حاكي شعراء اليونان مثلاً؛ وهل منهم من جاءنا بما أقرأه أنا وأنت في «الليازة» مثلاً؛ أو ما قرأه لراسين وكورنيل وغيرهما؟ وهل لدينا من سبق عصره، كبودليير مثلاً، أو المعري الذي نجد فيه العزاء، وغيرهما ممن عظم حظهم من الثقافة؟

إن الحكمة التي كانت تقال في العصر الجاهلي فتتهز لها نفس العرب، وتفخر بها قبائل على قبائل أخرى، لم تكن كافية لإرواء ظمأ العرب بعد فتوحاتهم، ولذا رأيناهم يتجهون إلى الفلسفة اليونانية يلتمسون فيها مثلهم، وفي هذا دليل على صدق ما تقول، ثم هو دليل على أن اتعمق في البحث عن الأشياء لم يكن من طبيعة العرب في عصورهم الأولى.

والآن لكي تكون لنا حياة شعرية يجب أن تتطور الألفاظ والمعاني؛ والتطور أظهر

مظاهر الحياة ؛ وليس لدينا — بكل أسف — من هذا التلاور شيء ، بل لا نكاد نحسه ، ولا نكاد نرى ذلك الشاعر الذي يستخرج لنا عواطف قد لانحسها نحن لبعده غورها ؛ والنفس الانسانية اعتمت غوراً من أن يحسها أصحابها تمام الاحساس ؛ فكم يكون عجبك حين تجد شاعراً كشف لك عن عاطفة غريبة عنك ، ومعنى بعيد عليك .
لكل ما ذكرت أرى أن الحاضر والمستقبل القريب للنتج دون الشعر .

رأى الأستاذ خليل بك مطران

لعل ما سطره قلم الأديب النابغة الأستاذ أنطون بك الجليل، خير ما يقال في « مطران »، فأنت تجد فيه أبرز صورة تصور لك شخصية « مطران » الفذة وشاعريته الحساسة ، أدق تصوير . وهو ما نحرص على تقديمه إليك :

« نشأ تحت سماء سوريا بين أوديتها الخضراء ، وجبالها البيضاء ، بين آثار بعلبك ذات العظمة والجلال والبهاء . وترعرع وشب في وادي النيل ، بين آثار المدينة القديمة ، وصروحها العظيمة . عاش تارة في القرى والجبال ، فقترب حب الطبيعة والفضيلة فأسمعنا الشعر زاهراً طامراً ، وعاش طوراً في المدن فراحه ما فيها من التمس والشقاء ، فألقى إلينا إنشاده مبكياً زاجراً . شعره يجمع الصور وملعب الخيال ، ونفسه كالصحيفة الحساسة ينطبع عليها كل ما يمر بها ؛ فهو شاعر الشعور والخيال ، وشاعر بعلبك والأهرام . وقد عرف أن يستفيد من لغات الأبناب دون تقليد ، وينهج نهج قدماء العرب دون تقييد ، فاحتفظ بصيغة العرب في التعبير ، وأدخل أساليب الأفرنج في التأليف والتفكير »

هذا رأى الأستاذ الجليل في « مطران » وهو رأى صائب ، وأما رأى « مطران » في موضوعنا فهو مازاه في مايلي :

هل أضرت موت الشاعر به فراغاً ؟

إن الفقيدين العظيمين ظلا في كل حياتهما وفي مختلف مراحلهما ، وسيظلان حتى الأبد خالدين على مر الأيام والدهور ؛ بما أسديا إلى النهضة الفكرية الحديثة من فضل جهم ويد كريمة ؛ وسيظل اسمهما يترددان في أرجاء العالم العربي ، ما بقيت العربية وبقى الشعر ، لذلك نشعر بأن ما أحدثته موتهما في نفوسنا من ألم وحسرة بالغ الأثر ، فقد أديا رسالتهما في الحياة بالقدر الذي إتاحت له لكل منهما ظروفه ، في أبلغ أداء وأصدق تعبير . ومن هذه الناحية نستطيع القول بأن موتهما أحدث في حياتنا الشعرية أثراً ليس بالهين ، وفراغاً ليس باليسير ؛ وإنا لنترجو أن نوفق إلى من يملأه في عهد قريب .

لقد أحسن كل من الشعارين في أبواب خاصة ، كما أجاد كل منهما في مناح خاصة : وما من شك في أن لكل منهما ميزات وخصائص تختلف عن ميزات الآخر وخصائصه : وقد كانت لكل منهما ملابسات وظروف تخالف ملابسات الآخر وظروفه ، ثم كان لهذه الملابسات وتلك الظروف أثر في شعرها وتوجيهه وجهة نراها كل الرضا حيناً ، وبعض الرضا حيناً آخر . وقد حاولا محاولات عدة لمعالجة الشعر الحديث ، وتناول أغراضه المتجددة ، وفنونه المتنوعة ، فكانت محاولتهما جد قليلة ، لأنهما لم يكونا واثقين منها ؛ ولأن النفوس لم تكن قد تهيأت لقبول هذه الآراء التي يدفعها إلينا الغرب دفعاً .

وأنت لو حاولت تلص القصائد الطوال في المعنى الواحد ، والغرض الواحد ، في المناسبات السياسية مثلاً ، فلن تظفر من ذلك بشيء يجدى أو يفيد ؛ وليس ذلك عيبهما وحدهما ؛ وإنما هو عيب الشعب أيضاً ، فقد كان يرضيه في نهضته السياسية مثلاً البيت الواحد ، فيصفق له ويتررب منه ويجمله أنشودة ومثلاً ، أما أغراض الشعر البعيدة المرى ، السامية المغزى ، وأما استقرار التاريخ العام ، وتحليل الشخصيات البارزة تحليلاً دقيقاً ، وتناول أروع عواطف النفس بالتصوير والوصف ، وأما تصور المثل العليا ورسم الأوضاع الشعرية السامية ، فأشياء لم نعمل منها قليلاً ولا كثيراً ؛ وإذا كنت تظفر بشيء من هذا فأنتما تظفر بالنادر الذي لا حكم له ولا يقاس عليه . ومرد ذلك إلى أننا لم نتشبع بالروح العربي الخلاق ، ولا بالروح الغربي الحديث في التصوير والوصف وسوق الأفاصيص ونحوها ، وبنقصنا في ذلك الروح الحربي الجري ، والروح القوي السليم ، والثروة الغنافية من الألفاظ العربية الفصيحة .

ولذلك لا نجد في شعرنا ما يجده بارزاً في شعر الألمان أو الفرنسيين أو الإنكليز من روح حربي أو روح قوي أو روح خلقى .

وما ذلك إلا لأننا وقفنا عند القديم مغسب ، ثم تركنا الحياة وكل مافي الحياة من جديد ، وأخذنا تتمثل مثل القدماء من العرب ، وتخييل أحييتهم ، ونستعير ألفاظهم وقوافيهم وأوزانهم ، من غير ما تجديد ولا تهذيب ولا تشذيب ؛ ومن غير ما نلظر إلى الأمام ، بل نرجع إلى الوراء وننظر إلى الخلف ، ونذهب إلى جرير وإلى الفرزدق وإلى امرئ القيس وإلى لبيد وإلى أمثال هؤلاء وهؤلاء ممن بعدت بيننا وبينهم الحقب ، ودالت بيننا وبينهم دول .

وفي عصر الخديوي عباس مثلاً نرى الشعراء يتوجهون بشعرهم كله إليه يدعونه . ويترفلون إليه ، ويعبدون إليه المدح القديم في ألوان جديدة ، وقل أن يكون في القصيدة ما ينبيء عما يبدو هذا الغرض ، فكيف تكون من هذه الكلمات روحاً قوياً وثاباً يفى بالغرض المقصود ، حتى نعمل منه سمطاً تتألت منه درر الشعر وجواهره ؟

الحق أنا لم نعرف رسالة الشعر إلا إلى حد قليل ، والحق أن جمهورنا العربي أيضاً لم يفهم رسالة الشعر؛ فشعراؤنا يحاولون جهد طاقتهم تعرف الرأي العام والناحية التي يتوجه إليها ، وهم يسمون إلى إرضائه بالقدر اليسير؛ لأن الرأي العام يكفيه جداً البيت الواحد تشير فيه إلى الدستور أو إلى الاستقلال أو إلى فرح الأمة أو حزنها؛ وليس هذا فهماً للشعر، ولا فهماً لرسالته. وقد يكون النثر قطع مرحلة أكبر من تلك التي قطعها الشعر، بفضل تفرغ من الجهاضة الأشلام المتضلعين من اللغة والعلوم ، أما الأكثر ومن عداهم، فما زالوا في حاجة إلى التغذية العلمية والمعارف الهامة من لغات مختلفة وآداب متعددة وعلوم متباينة، وهو ما لا بد منه للشاعر والكاتب ؛ وإني لأذكر أنا إلى عهد قريب لم تكن تعرف هذا الذي يستطيع وصف الغرفة في شكلها الحديث، فلما توفرت لدينا طائفة من الكتاب الذين وفقوا إلى ألفاظ وأساليب جديدة ، سواء أكان ذلك بالخلق أم بالابتكار أو بالتركيب أو بالنحت والاشتقاق؛ ولما أن ذاع هذا وكثر استعماله، أصبح التلميذ الصغير قادراً على وصف الغرفة ومحتوياتها أدق وصف . واللغة العربية ضافية الثروة ، غنية الألفاظ ، كثيرة التراكيب ، وهي كفيلة بتحقيق رسالة الشعر لمن يحسن استعمالها ، ويفهم غريبها وقريبها ، ويضيف إلى علمه بها علماً بمستجدات الحياة من آداب وفنون في الأمم الأخرى . والخلاصة أنه متى وجد العقل الخلاق المبتكر ، والذهن الصافي الواعي ، فيبتكر جديداً مع بقاء الأصل السليم في اللغة على ما كان عليه من فصاحة وبلاغة ، استطعنا الوصول بالشعر إلى درجة قد تتبجح لو اُخذ منا الطمع في الحصول على جائزة « نوبل » التي لم ينلها شاعر من شعرائنا حتى الآن .

عبد العزيز

والله ما رأى القارىء

فيمه هو أمي بزعامه الشعر؟

أرسل إلينا رأيك حراً صريحاً ، موضعاً اسم شاعر واحد يقع عليه اختيارك . ويجب أن يصلنا الرد داخل مطروف بعنوان « المعرفة » ، ومكتوباً عليه عبارة « الشعر والشعراء » . وستنضم هذه المظاريف في يوم ٦ إبريل سنة ١٩٣٣ ، بمعرفة لجنة خاصة مكونة من كبار رجال الأدب واللغة والنقد والتعليم وأعلام الكتاب المعروفين . وستعلن نتيجة الآراء جيماً ، وعدد الأصوات التي حازها كل شاعر بالترتيب ، مصحوبة بصورة الشاعر الذي نال أكثرية الأصوات ، في العدد الأول من السنة الثالثة « للمعرفة » الذي يصدر في أول مايو سنة ١٩٣٣